الكِفَاحُ الدَّامِي

اتِّصَالُ قُرَيْشٍ بِعَبْدِ اللَّهِ بنِ أُبَيٍّ ابنِ سَلُولٍ:

قد أسلفنا ما كان يأتى به كفار مكة من التنكيلات والويلات ضد المسلمين وما فعلوا بهم عند الهجرة مما استحقوا لأجلها المصادرة والقتال إلا أنهم لم يكونوا ليفيقوا من غيهم ويمتنعوا عن عدوانهم بل زادهم غيظًا أن فاتهم المسلمون ووجدوا مأمنًا ومقرًّا بالمدينة ؛ فكتبوا إلى عبد الله بن أبى ابن سلول وكان إذ ذاك مشركًا بصفته رئيس الأنصار قبل الهجرة ؛ فمعلوم أنهم كانوا مجتمعين عليه وكادوا يجعلونه ملكًا على أنفسهم لولا أن هاجر رسول الله ﷺ وآمنوا به - كتبوا إليه وإلى أصحابه المشركين يقولون لهم فى كلمات باتة: إِنَّكُمْ آوَيْتُمْ صَاحِبَنَا وَإِنَّا نُقْسِمُ بِاللَّهِ لَتُقَاتِلُنَّهُ أَوْ لَتُخْرِجُنَّهُ أَوْ لَنَسِيرَنَّ إِلَيْكُمْ بِأَجْمَعِنَا حَتَّى نَقْتُلَ مُقَاتِلَتَكُمْ وَنَسْتَبِيحَ نِسَاءَكُمْ فَلَمَّا بَلَغَ ذَلِكَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أُبَيٍّ وَمَنْ كَانَ مَعَهُ مِنْ عَبَدَةِ الأَوْثَانِ اجْتَمَعُوا لِقِتَالِ النَّبِيِّ ﷺ فَلَمَّا بَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ ﷺ لَقِيَهُمْ فَقَالَ لَقَدْ بَلَغَ وَعِيدُ قُرَيْشٍ مِنْكُمْ الْمَبَالِغَ مَا كَانَتْ تَكِيدُكُمْ بِأَكْثَرَ مِمَّا تُرِيدُونَ أَنْ تَكِيدُوا بِهِ أَنْفُسَكُمْ تُرِيدُونَ أَنْ تُقَاتِلُوا أَبْنَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ فَلَمَّا سَمِعُوا ذَلِكَ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ تَفَرَّقُوا .

امتنع عبد الله بن أبى ابن سلول عن إرادة القتال عند ذاك لما رأى خورًا فى أصحابه ولكن يبدو أنه كان متواطئًا مع قريش فكان لا يجد فرصة إلا وينتهزها لإيقاع الشر بين المسلمين والمشركين وكان يضم معه اليهود ؛ ليعينوه على ذلك ، ولكن تلك هى حكمة النبى ﷺ التى كانت تطفئ نار شرهم حينًا بعد حين[1] .

إِعْلاَنُ عَزِيمَةِ الصَّدِّ عَنِ المَسْجِدِ الحَرَامِ:

ثم إن سعد بن معاذ انطلق إلى مكة معتمرًا فنزل على أمية بن خلف بمكة فقال لأمية: انظر لى ساعة خلوة لعلي أن أطوف بالبيت فخرج به قريبًا من نصف النهار فلقيهما أبو جهل فقال: يا أبا صفوان من هذا معك؟ فقال: هذا سعد ، فقال له أبو جهل: ألا أراك تطوف بمكة آمنًا وقد آويتم الصباة وزعمتم أنكم تنصرونهم وتعينونهم ؛ أما والله لولا أنك مع أبى صفوان ما رجعت إلى أهلك سالمًا فقال له سعد:- ورفع صوته عليه: أما والله لئن منعتنى هذا لأمنعك

---

(١) سيرة الرسول أبو عمار ٢٣٠ .

ما هو أشد عليك منه طريقك على أهل المدينة[١] .

وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ:

ثم إن قريشًا أرسلت إلى المسلمين تقول لهم: لا يغرنكم أنكم أفلتمونا إلى يثرب وسنأتيكم فنستأصلكم ونبيد خضراءكم فى عقر داركم .

ولم يكن هذا كله وعيدًا مجردًا فقد تأكد عند رسول اللهﷺ من مكان قريش وإرادتها على الشر ما كان لأجله ؛ لا يبيت إلا ساهرًا أو فى حرس من الصحابة فقد روى مسلم فى صحيحه عن عائشة رضى الله عنها قالت: سهر رسول اللهﷺ مقدمه المدينة ليلة فقال: «**ليت رجلاً صالحًا من أصحابى يحرسنى الليلة**» قالت: فبينما نحن كذلك سمعنا خشخشة سلاح فقال: «**من هذا؟**» قال: سعد بن أبى وقاص ، فقال له رسول اللهﷺ : «**ما جاء بك؟**» وقع فى نفسى خوف على رسول اللهﷺ فجئت أحرسه فدعا له رسول اللهﷺ ثم نام[٢] ولم تكن هذه الحراسة مختصة ببعض الليالى بل كان ذلك أمرًا مستمرًا ، فقد روى عن عائشة قالت: كان رسول اللهﷺ يحرس ليلاً حتى نزل:﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [المائدة: ٦٧] فأخرج رسول اللهﷺ رأسه من القبة وقال: «**يا أيها الناس انصرفوا عنى فقد عصمنى الله عز وجل**»[٣] .

ولم يكن الخطر مقتصرًا على رسول اللهﷺ بل على المسلمين كافة ، فقد روى أُبيُّ ابن كعب قال: لما قدم رسول اللهﷺ وأصحابه المدينة وآوتهم الأنصار رمتهم العرب عن قوس واحدة ، وكانوا لا يبيتون إلا بالسلاح ولا يصبحون إلا فيه[٤] .

الإِذْنُ بِالقِتَالِ:

فى هذه الظروف الخطيرة التى كانت تهدد كيان المسلمين بالمدينة وتنبئ عن قريش أنهم لا يفيقون عن غيهم ، ولا يمتنعون عن تمردهم بحال أنزل الله تعالى الإذن بالقتال للمسلمين ولم يفرضه عليهم قال تعالى:﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ

---

(١) الرحيق المختوم ١٨٢ .
(٢) أخرجه البخاري ومسلم والترمذي .
(٣) رواه الترمذي والحاكم وصححه ووافقه الذهبي .
(٤) سيرة الرسول أبو عمار ٢٣٢ .

نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [الحج: ٣٩] وأنزل معه آيات يبيِّن لهم فيها أنَّ هذا الإذن إنما هو لإزاحة الباطل وإقامة شعائر الله قال تعالى: ﴿﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾ [الحج: ٤١].

الإذن مقتصرًا على قتال قريش ثم تطور فيما بعد مع تغير الظروف؛ حتى وصل إلى مرحلة الوجوب وجاوز قريشًا إلى غيرهم[١].

الغَزَوَاتُ والسَّرَايَا قَبْلَ بَدْرٍ[٢]:

ولما نزل الإذن بالقتال رأى رسول الله ﷺ أن يبسط سيطرته على الطريق الرئيسى الذى تسلكه قريش من مكة إلى الشام فى تجاراتهم واختار لذلك خطتين:

الأولى: عقد معاهدات مع القبائل التى كانت مجاورة لهذا الطريق أو كانت تقطن ما بين هذا الطريق وما بين المدينة.

الثانية: إرسال البعوث واحدة تلو الأخرى إلى هذا الطريق.

ولتنفيذ هاتين الخطتين بدأ بالتحركات العسكرية فعلاً بعد نزول الإذن بالقتال وكانت أشبه بالدوريات الاستطلاعية وكان المطلوب منها كما أشرنا:

- الاستكشاف والتعرف على الطرق المحيطة بالمدينة والمسالك المؤدية إلى مكة
- عقد المعاهدات مع القبائل التى مساكنها على هذه الطرق.
- إشعار مشركى يثرب ويهودها وأعراب البادية الضاربين حولها بأن المسلمين أقوياء، وأنهم تخلصوا من ضعفهم القديم.
- إنذار قريش عقبى طيشها؛ حتى تفيق من غيها الذى لا يزال يتوغل فى أعماقها؛ لعلها تشعر بتفاقم الخطر على اقتصادها وأسباب معايشها، فتجنح إلى السلم وتمتنع عن إرادة قتال المسلمين فى عقر دارهم وعن الصد عن سبيل الله وعن تعذيب المستضعفين من المؤمنين فى مكة؛ حتى يصير المسلمون أحرارًا فى إبلاغ رسالة الله فى ربوع الجزيرة[٣].

---

(١) الرحيق المختوم ١٨٣ - ١٨٤.
(٢) سمى المؤرخون ما خرج فيه النبي بنفسه غزوة حارب فيها أم لم يحارب، وما خرج فيه أحد قادته سرية.
(٣) الرحيق المختوم ١٨٣ - ١٨٤.

فِيمَا يَلِي أَحْوَالُ هَذِهِ السَّرَايَا بِإِيجَازٍ :

١- غزوة الأبواء:

هى أول غزوة غزاها رسول الله ﷺوتعرف بغزوة ودان أيضًا- وهما موقعان متجاوران بينهما ستة أميال أو ثمانية - ولم يقع قتال فى هذه الغزوة بل تمت موادعة[١] بنى ضمرة - من كنانة- وكان الذى وادعه منهم عليهم سيدهم مخشى بن عمرو الضمرى وكانت هذه الغزوة فى صفر٢هـ ، وكان عدد المسلمين مائتين بين راكب وراجل[٢] .

٢- سرية عبيدة بن الحارث:

وهى أول راية عقدها ﷺوكان عدد السرية ستين من المهاجرين ، وكانت قوة الأعداء من قريش أكثر من مائتين ما بين راكب وراجل - وكان قائد المشركين عكرمة بن أبى جهل وقيل: أبو سفيان بن حرب - وحصلت مناوشات بين الطرفين على ماء رابغ ، وقد رمى سعد بن أبى وقاص بسهم ؛ فكان أول سهم رمى به فى الإسلام ، وكانت السرية بعد رجوعه من الأبواء[٣] .

٣- سرية حمزة بن عبد المطلب:

بعث رسول الله ﷺحمزة بن عبد المطلب إلى سيف البحر فى ثلاثين راكبًا من المهاجرين فلقى أبا جهل بن هشام فى ثلاثمائة راكب من أهل مكة فحجز بين الفريقين مجدى بن عمرو الجهنى وكان حليفًا للفريقين فانصرف القوم عن بعض فلم يقتتلوا [٤] .

٤- غزوة بواط:

خرج رسول الله ﷺفى شهر ربيع الأول من السنة الثانية للهجرة فى مائتين من أصحابه ، وكان مقصده أن يعترض عيرًا لقريش كان فيها أمية بن خلف فى مائة رجل وألفين وخمسمائة بعير فلم يلق النبى ﷺكيدًا فرجع إلى المدينة[٥] .

---

(١) موادعة: معاهدة .
(٢) ابن هشام (١ / ٣٥٨ - ٣٥٩) ، السيرة النبوية للصلابي (١ / ٤٢٤) .
(٣) ابن هشام (١ / ٣٥٩ - ٣٦٠) ، السيرة النبوية للصلابي (١ / ٤٢٤) .
(٤) ابن هشام (١ / ٣٦٠) .
(٥) السيرة النبوية للصلابي (١ / ٤٤٣) .

٥- غزوة العشيرة:

غزا الرسول ﷺ قريشًا لاعتراض قوافلها التجارية وكان معه مائة وخمسون من أصحابه فبلغ العشيرة بناحية ينبع ، فأقام بها جمادى الأولى ، وليالى من جمادى الآخرة وفاتته العير ووادع فى هذه الغزوة بنى مدلج وحلفاءهم من بنى ضمرة ثم عاد إلى المدينة ، ولم يلق حربًا[١] .

٦- سرية سعد بن أبى وقاص إلى الخرار:

بلغ النبى ﷺ أن عيرًا لقريش فى طريقها إلى مكة ، وأنها قد أخذت طريق الخرار[٢] فانتدب سعد بن أبي وقاص لقيادة سرية لاعتراضها يقول سعد: "فخرجت فى عشرين رجلاً أو إحدى وعشرين على أقدامنا نكمن بالنهار ونسير بالليل ؛ حتى صبحناها صبح خمس فنجد العير قد مرَّت بالأمس ، وقد كان النبى ﷺ عهد إليَّ ألا أجاوز الخرار ولولا ذلك لرجوت أن أدركهم"[٣] .

٧- غزوة سفوان:

سببها أن كُرز بن جابر الفهرى أغار على سرح[٤] المدينة فخرج رسول الله ﷺ فى طلبه واستعمل على المدينة زيد بن حارثة ؛ حتى بلغ واديًا يقال له: سفوان من ناحية بدر وفاته كرز بن جابر ؛ فلم يدركه وهى غزوة بدر الأولى ثم رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة[٥] .

٨- سرية عبد الله بن جحش:

فى رجب سنة ٢هـ بعث رسول الله ﷺ عبد الله بن جحش وبعث معه ثمانية رهط من المهاجرين إلى نخلة[٦] وكان رسول الله ﷺ كتب له كتابًا ، وأمره أن ينظر فيه ؛ حتى يسير يومين ثم ينظر فيه فيمضى لما أمره به ، ولا يستكره من أصحابه أحد .

---

(١) ابن هشام (١ / ٣٦٣) ، سيرة الرسول أبو عمار ٢٣٦ .
(٢) الخرار: موضع بالحجاز قرب الجحفة .
(٣) سيرة الرسول أبو عمار ٢٣٦ .
(٤) سرح: الإبل والمواشي التي تسرح للرعي بالغداة .
(٥) ابن هشام (١ / ٣٦٣) .
(٦) نخلة: اسم مكان .

فسار عبد الله يومين ثم قرأ الكتاب فإذا فيه: "إذا نظرت فى كتابى هذا فامض ؛ حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف فترصد بها عير قريش وتعلم لنا من أخبارهم" فقال: سمعًا وطاعة ثم قال لأصحابه: قد أمرنى رسول الله ﷺ أن أمضى إلى نخلة أرصد بها قريشًا حتى آتيه منهم بخبر ، وقد نهانى أن أستكره أحدًا منكم فمن كان منكم يريد الشهادة فلينطلق ، ومن كره ذلك فليرجع ، فأما أنا فماضٍ لأمر رسول الله ﷺ فمضى ومضى معه أصحابه لم يتخلف عنه منهم أحد غير أنه لما كان فى أثناء الطريق أضل سعد بن أبى وقاص وعتبة بن غزوان بعيرًا لهما كانا يعتقبانه متخلفًا فى طلبه .

وسار عبد الله بن جحش ؛ حتى نزل بنخلة فمرت عير لقريش تحمل زبيبًا وأدمًا وتجارة وفيها عمرو بن الحضرمى وعثمان ونوفل ابنا عبد الله بن المغيرة والحكم بن كيسان مولى بنى المغيرة فتشاور المسلمون وقالوا: نحن فى آخر يوم من رجب الشهر الحرام فإن قاتلناهم انتهكنا الشهر الحرام ، وإن تركناهم الليلة دخلوا الحرم ثم اجتمعوا على اللقاء ؛ فرمى أحدهم عمرو بن الحضرمى فقتله ، وأسروا عثمان والحكم وأفلت نوفل ، ثم قدموا بالعير والأسيرين إلى المدينة وقد عزلوا من ذلك الخمس لرسول الله ﷺ وهو أول خمس فى الإسلام ، والحضرمى أول قتيل فى الإسلام ، وعثمان والحكم أول أسيرين فى الإسلام أنكر رسول الله ﷺ ما فعلوه وقال: «**ما أمرتكم بقتال فى الشهر الحرام**» وتوقف عن التصرف فى العير والأسيرين .

ووجد المشركون فيما حدث فرصة لاتهام المسلمين بأنهم قد أحلوا ما حرم الله ، وكثر فى ذلك القيل والقال ؛ حتى نزل الوحى حاسمًا هذه الأقاويل وأن ما عليه المشركون أكبر وأعظم مما ارتكبه المسلمون: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾ ﴾ [البقرة: ٢١٧] أى: إن كنتم قتلتم فى الشهر الحرام فقد صدوكم عن سبيل الله مع الكفر به وعن المسجد الحرام وإخراجكم منه وأنتم أهله أكبر عند الله من قتل من قتلتم منهم وفتنتهم للمسلمين في دينهم حتى يردوهم إلى الكفر بعد إيمانهم أكبر عند الله من القتل ؛ فلما نزل القرآن بهذا الأمر قبض رسول الله ﷺ العير

والأسيرين ، وبعثت قريش للرسولﷺ في فداء عثمان بن عبد الله والحكم بن كيسان فقالﷺ : «**لا نفديكموهما؛ حتى يقدم صاحبانا - يعني: سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان- فإن نخشاكم عليهما فإن تقتلوهما نقتل صاحبيكم**» فقدم سعد وعتبة فأفداهما رسول اللهﷺ منهم[1] .

النَّتَائِجُ وَالدُّرُوسُ المُسْتَفَادَةُ مِنَ الغَزَوَاتِ وَالسَّرَايَا :

١- إشراك الرسولﷺ للمهاجرين في هذه الغزوات والسرايا إحياءً لقضيتهم في أنفسهم أولاً وإنهاكًا للاقتصاد القريشي ومحاصرته واستعادة لبعض الحقوق المسلوبة .

٢- حققت هذه الغزوات والسرايا نتائج وأهدافًا مهمة منها:

(١) إدراك أعداء الإسلام لقوة المسلمين ؛ فالجيش الإسلامي لا يتوقف ليلاً ونهارًا مما جعل الجميع يعمل ألف حساب قبل أن تحدثه نفسه بغزو المدينة أو مناصرة أحد من الأعداء عليها .

(ب) ضرب المصالح الاقتصادية لقريش وقطع طرق تجارتها خصوصًا إلى الشام .

(ج) كسب بعض القبائل وتحجيم دور الأعراب فقد حالف رسول اللهﷺ قبيلة (جهينة) وغيرها من القبائل كانت تتعاون مع قريش فأصبحت هذه القبائل تمثل خطرًا على قريش .

كما قام النبيﷺ بتحجيم دور الأعراب الذين يفرضون إتاوات على القبائل المارة بمناطق نفوذهم ولكن رسول اللهﷺ طاردهم في غزوة سفوان (بدر الصغرى) فلم يستطيعوا مهاجمة المدينة ودخلوا في اتفاقات مع المسلمين .

(د) تدريب الصحابة على إتقان فنون القتال وقد ساعد ذلك على إعداد الذين ساهموا في تحقيق الكثير من الفتوحات مثل أبي عبيدة بن الجراح قائد فتوحات الشام سعد بن أبي وقاص صاحب القادسية وفاتح المدائن وغيرهم الكثير .

(هـ) حققت سرية عبد الله بن جحش نتائج مهمة وفيها دروس وعبر وفوائد عظيمة منها:

---

(١) ابن هشام (١ / ٣٦٣ - ٣٦٦) ، الرحيق المختوم ١٨٧ - ١٨٨ .

١- كتب رسول الله ﷺ كتابًا لعبد الله بن جحش وأمره أن لاينظر فيه حتى يسير يومين لبيان أهمية إخفاء الخطط الحربية ومنها خط السير حتى يكون الجيش فى أمان من الأعداء .

كما تظهر آثار التربية النبوية فى هذه السرية من خلال طاعة قائد السرية لأوامر رسول الله ﷺ دون تردد معطيًا من نفسه القدوة الحسنة لجنوده وهو يقول لهم: فمن كان منكم يريد الشهادة ويرغب فيها فلينطلق ومن كره ذلك فليرجع ؛ فأما أنا فماضٍ لأمر رسول الله ﷺ وساروا إلى منطقة أعدائهم وتجاوزوها ؛ حتى أصبحوا من ورائهم وهذا دليل على قوة إيمانهم وتضحيتهم بأنفسهم فى سبيل الله كما يدل على مدى الدقة التى تمت بها العملية .

٢- استغلال قريش للقتال فى الشهر الحرام وقامت بالتشهير برسول الله ﷺ وأصحابه وقالت قريش:" قد استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام وسفكوا فيه الدم وأخذوا فيه الأموال وأسروا فيه الرجال .

كما قام اليهود - كعادتهم- بتصعيد الموقف وقالوا: إن الحرب واقعة لا محالة بين المسلمين وقريش إلى أن نزلت الآيات ترد بقوة على دعايات قريش المغرضة موضحة أنه وإن كان الشهر الحرام لا يحل فيه القتال ؛ ولكن لا حرمة عند الله لمن هتك حرمات الله وصد عن سبيله .

٣- حرص القائد على سلامة جنوده:

فعندما تخلف سعد بن أبى وقاص وعتبة بن غزوان بسبب بحثهما عن بعير لهما رفض رسول الله ﷺ أن يرد الأسيرين لقريش قبل أن يعود سعد وعتبة ؛ مخافة أن توقع قريش أى ضرر بهما ؛ حرصًا عليهما [1] .

* * *

(١) السيرة النبوية للصلابي (١ / ٤٤٤ - ٤٥٥) .